

آياتُ العزّة في القرآن الكريم



آياتُ العزّة في القرآن الكريم تعطينا - من جانبها - معاني العزّة الحقيقية والأخرى الوهمية المصطنعة، أو العزّة الأصيلة والأخرى المُنْتَحَلَة، فماذا يطالعنا هنا؟

1- العزّة التامّةُ الكاملةُ المطلقة هي الأساس وهي □ تعالى كلاّها:

قال تعالى: □ أَيْدِيَتَغُوبُونَ عِنْدَهُمُْ الْعِزَّةَ - فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً □
(النِّسَاءُ / 139).

وفي الآية نفيٌ صريحٌ للعزّة أو الاعتزاز بغير □ تعالى، إذ لا تُبتغى العزّة ولا تُطلب إلا من مصدرها الأساس، وإلا من حيثُ هي كاملةٌ مكتملة لا تشوبها ذلّة.

2- العزّة خُلِقُ □ الذي يتخلّق به أنصارُ دينه:

قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلَّامَّةِ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (المنا فون/ 8).

هي تعالي منيعها ومصدرها وأساسها، وهي للرسول 6 بصفته مُمثِّلاً للسماء في الأرض، ومُتخلِّقاً بأخلاق الله في أبيه صُور التخلُّق وأكملها، وهي للمؤمنين المتأسِّين برسولهم 6، والمتخلِّقين أيضاً بأخلاق الله جلَّ جلاله.

وبموجب هذه النظرة الثلاثية للعرزة، وهي للحقَّ نظرةٌ واحدة، فإننا نرى أن القرآن لا يُجزئ العرزة إلى ثلاثة أصناف: عرزة ربانية، وعرزة نبوية، وعرزة إيمانية، وإنما هي عرزة واحدة متحدة: أصلها عرزة رب العرزة، وفرعها ما يستمد منها من عرزة هنا وهناك، والأصلُ تتبعه الفروع!

3- ارتباط (العرزة) بالحكمة:

قال عز وجل: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران/ 6).

ترابط العرزة بالحكمة ترابطٌ جدلي، إذ لا عرزة إلا بحكمة ترافقها وتضعها مواضعها الصحيحة، ولا حكمة متعالية إلا بعرزة تثبت أقدامها في حركة الحياة، واستيحاءً من ذلك يفهم الأعزواء معنى الاقتران بين شرط عزتهم وبين شرط حكمتهم، حتى يكون كلُّ شيء في نصابه، ولئلا تكون العرزة - بما تعنيه من معاني الإباء والغلبة - تهوُّراً واستعلاءً أو استكباراً في الأرض.

4- ارتباط (العرزة) بالقُدرة:

قال جلَّ جلاله: ﴿فَأَخَذْنَا هُمْ أَخْذَ عَزْرِ يَزِيدٍ مَقْتَدِرِينَ﴾ (القمر/ 42).

لا يكفي في الغلبة كسر شوكة المغلوب أو المنتصر عليه، بل لابد أن تكون العرزة قوة فاهرة لا يقوم لها شيء، وأشكال الأخذ القرآني للأُمم المكذِّبة والمعاندة العاصية كاشفة عن معنى العرزة الغالبة والقاهرة والمهيمنة على القوى كلها (راجع ذلك في إغراق قوم نوح (ع) بالطوفان، وإغراق فرعون بالبحر، وإهلاك الأُمم المعاندة العاصية كعاد وثمود وغيرهما).

5- (العرزة) موهبة ربانية:

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّاهُْمَّ مَالِكِ الْمُلُوكِ تُؤْتِي الْمُلُوكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلُوكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَي كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران / 26).

مثلاً (العزّة) بيده، (الإذلال) أيضاً بيده، يهبُ الأُولى لمن يستحقّها من الناس، وينزعها عمّن لا يليق بها ولا تليق به، فيبقى أبدَ الدهر ذليلاً، وإن تَوَسَّلَ بوسائل العزّة المادّية كلاهما. قال تعالى في العصاة من بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ آلَ لُوطٍ إِيَّاهُ يَوْمَ السُّيُوفِ﴾ (الأعراف / 167).

6- (العزّة) ليست بالكثرة:

قال عزّ وجلّ عن لسان المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّنا أَعْرَضُ مِثْلَ الَّذِي كُنَّا فِيهِ وَاللَّيْلُ نَدُوءُ الرَّجْزِ أَظْفَرُ مِنَ الْيَوْمِ﴾ (المنافقون / 8).

ويريدون بالأعزّ (الأكثر عدداً)، والأذلّ (الأقلّ أنصاراً)، وهو حسابٌ مَن لا يحسب للغيب حساباً، ولا يُدخلُ في حسابها، ولا يرى أبعَدَ من قوّة عدديّة محتشدة يحسب أنّها تمنع المعجزات، وهي ليست قادرة حتى على الدفاع عن نفسها إذا جاء أجلها، أو قُوِّلت بقوّة العزّة الربّانية من قبيل أنصارِ جيشِ أبرهة الحبشي أُبِيدَ عن بكرة أبيه بطيرٍ من أبابيل ترميهم بحجارةٍ من سجّيل، وجيشُ المشركين في بدرٍ يُهزم على الرغم من قلّة عدد المقاتلين في الصفّ الإيمانيّ، والأمثلة على ذلك كثيرة.

إنّ حديث أو حوار صاحب الجنّتين (البستانين) مع ذلك الرجل الفقير المُعدَم هي قصّة الأنظمة والحكومات مع الأُمم والشعوب: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكُمْ مَالاً وَأَعَزُّ زَفْراً﴾ (الكهف / 34)، مقياسُ العزّة عندهم كثرة الأتباع والمؤيِّدين والمجذّدين ليس أكثر.

وهذا يقودنا إلى الحديث عن (العزّة الوهمية المصنّعة أو المُنتَحَلَة) ومثالها في القرآن (عزّة فرعون) التي راهن عليها (سحرتُه) في بداية المباراة مع موسى (ع): ﴿قَالُوا يَا عِزَّةَ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَدْعُوُ الْغَالِبِينَ﴾ (الشّعراء / 44).

وما إن تهافت فُنونهم السحريّة، ومهاراتهم المادّية، وقواهم العدديّة، أمام ضربة موسى القاضية،

حتى عرفوا أن العزّة ليست التي تصوّروها عند (فرعون) من خلال ظاهر قوّته، وواجهات سطوته، وإنّما هي التي استمدّها موسى (ع) من ربّ العزّة وهو يلقي عصاه بكلّ ثقة واطمئنان.

ولأنّهم (عُقلاء)، قادرون على التمييز بين عزّتين: عزّة أصلية لا تتزلزل، وعزّة مُختلّقة متزلزلة، عزّة شكلية، وعزّة ثابتة لا تتزعزع، لم يتردّدوا للحظة في الانحياز إلى عزّة تمسّك بها موسى 7 فكانت الغلبة لصالحه، فيما لاذوا بعزّة السلطان التي تهاوت عندما ابتلعت عصا موسى كلّ سطوته وجبروته و(عزّته)، وليس عصيّ وحبال السّخرة فقط!

7- (العزيرُ) الوجيهُ في قومه:

يصف القرآنُ زوج (زليخا) بأنّه عزيز، بقوله تعالى: ﴿قَالَ لَتِ امْرَأَةٌ الْعَزِيزِ الْآنَ حَاصِرَةٌ﴾ (يوسف/ 51).. وسواء أكان وزيراً للداخلية، أم مديراً للشرطة، أم رمزاً كبيراً من رموز السلطة أو المجتمع، فإنّه (عزيزُ الجانب) له مقامه المرموق، وموقعه المميّز الذي يُمكنه من بسط نفوذه في حدود سلطته.

ومثلاً ذلك قول إخوة يوسف (ع) مخاطبينه: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا﴾ (يوسف/ 78)، وإنّما خاطبوه بـ(العزيز) لموقعه السلطويّ النافذ حيث كان يشغل منصب (وزير المالية والاقتصاد) يومذاك.

وتبقى صفة (العزيز) هنا مُستمدّة من الموقع والعنوان والرتبة أكثر منها (العزّة) الربّانية التي هي محورُ حديث هذا الكتاب، وإلاّ إنّنا عندما نتحدّث عن يوسف (ع) فإنّنا نتحدّث عن عزّته: عزّته باّ الذي مكّنه له في الأرض، وعزّته بصفته وزيراً، والأولى هي التي يبحث عنها يوسف (ع) ويحرصُ عليها، بل ويسحبها إلى موقعه الإداريّ أيضاً، ليكون عزيزاً باّ دائماً، لا عزيزاً بموقع يأتي ويذهب.

8- الملوكُ بها بون عزّة الأعزّاء:

عندما قالت بلقيس (ملكة سبأ): ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (النمل/ 34)، أيّد القرآنُ وجهة نظرها بالقول: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، الأمر الذي يشير إلى أنّ (عزّة الأعزّاء) بالإيمان

خاصّة، هدفٌ من أهداف الملوك والحكّام والسلاطين، أي إنَّهم يستهدفون إذلال الأعزّاء لتبقى العزّة الوحيدة بأيديهم، فلا يهابُ الناسُ سواهم، ولا يرمقون بعين الإكبار والإجلال غيرهم، ولئلا ينافسهم في عزّتهم عزيز، وهم يدركون تماماً أنّ (عزّة الإيمان) أقوى من (هيبة السلطان).

ورد في الحديث عن النبيّ (ص)، كما رُوِيَ عنه: «مَن أراد عزّاً بلا عشيرة، وغنىً بلا مال، وهيبةً بلا سلطان، فلينتقل عن ذلك معصية الله إلى عزّ طاعته، فإنّ وجهه ذلك كلاله» [1].

وأوحى تعالى إلى داود (ع): «يا داود! إنّي وضعتُ خمسة في خمسة، والناس يطلبونها في خمسة غيرها فلا يجدونها: إنّي وضعتُ العزّ في طاعتي وهم يطلبونه في خدمة السلطان، فلا يجدونه...» [2]، وبهذا فحتى السلطانُ نفسه يُعرف أو يعلمُ جيّداً أنّ (هيبته) سطحيّة، وإنّ (عزّته) وهميّة، وإنّ ما أن يُخلعَ من منصبه أو عرشه حتى يغدو ذليلاً فزوعاً من جميع الأوصاف والنعوت، حتى من كلمة (عزيز)!

[1] - ميزان الحكمة، محمّد ري شهري، ج6، ص291.

[2] - بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ج78، ص453.